هلا حدثتنا
عن هذا الأمر؟

فإن قال قائل : قد يقع في قلب السائر شكوك في بعض المسائل لكثرة ما تطرق قلبه الشبهات فيها, وأنت تعلم أن أعظم الجهود في بث الشبهات منصبة في التشكيك في علم الحديث , فهلا حدثتنا عن هذا العلم بكلام مختصر علّه يشفي ارتياب القلب وشكه , ويذهب ببعض سقمه ؟

فأقول مستعينا بالله : قد سألت عن عظيم , وقد صدقت في وصفه , فإن كثيرا من الأقلام التي تجارت بأصحابها الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه قد استلت معلنة الحرب على الحديث النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام, وقد اسقط سمها فئام من الناس في حمأة الضلال ,ففي كل يوم نرى لهم جريح يطلب نجاة نفسه أو قتيل قد انبعثت به روح جديدة ليست هي التي كان يعيش فيها , بل روح شيطان في صورة كلب أسود ينبح كثيرا ولا يقول شيئا, يكرر فقط ما سمعته أناه من الهلكى النوكى.

بيد أن الأمر في حقيقته خير عظيم (**لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**)

فإن قلت : وكيف ذلك ؟

أقول : لو أخبرك مخبر بأمور عظام ستحصل في المستقبل وصعب عليك تصديق كلامه، فلما رأى ما فيك من ارتياب قال لك: دلالة صدقي أنك سترى قبل وقوعها أناس يفعلون كذا وكذا.

فحصل ما ذكر لك ورأيت هؤلاء الأناس الذين أخبر بهم , أليس سيهجم على قلبك يقين عظيم أن مع هذا الرجل علم حق قد خفي عليك نبأه ؟

فإن هؤلاء الطاعنون في السنة والحديث النبوي مع أصحاب الحديث ونقلته خبر يتنبأ به صاحبه ﷺ بظهورهم !

قال أحمد في مسنده : **17174 - حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا حَرِيزٌ، عَنْ (3) عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَوْفٍ الْجُرَشِيِّ، عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْحَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ.**

فكما هجم على قلبك اليقين بصدق صاحبنا قبل قليل فكذلك يجب أن يهجم على قلبك يقين أعظم منه بصدق أصحاب الحديث إذ نقلوا إليك هذا الخبر العظيم الذي أن ترى حقيقته وتأويله رأي العين، بل اليقين بهم أعظم فليس علم اليقين كعين اليقين.

أحسب أن هذا كاف في إزالة الريبة من قلبك، ولا يمنع هذا أن نتحدث قليلا في هذا الشأن من باب: بلى ولكن ليطمئن قلبي، فرب يسر وأعن برحمتك يا كريم ..

علم الحديث هو علمٌ يبحث في: ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير, من حيث صحته ومن حيث معناه -أو نقول : رواية ودراية- .

وتكمن أهمية هذا العلم كما هو واضحٌ في تعريفه أنّه متعلّقٌ في أصل الدين، أو لنقل في الصورة الصحيحة من الدِّين، فلمّا يقرأ المسلم قوله تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عمران: ٣١]

وقوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ} [آل عمران: ٣٢]

وقوله تعالى: {مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ} [المائدة: ٩٩]

يحصلُ في قلبه تعظيمٌ وإدراكٌ لأهمية صحة العلاقة بينه وبين الله تعالى، إمّا صحة أصلها وإمّا صحة كمالها.

فنظراً لأنّ طاعة الرسول ﷺ واجبة، واتباعه متحتّمٌ على من أراد تحقيق صحة محبته لله عز وجل، وأنّه صلى الله عليه وسلم قد بلَّغ وأدَّى ما عليه، بات **حرص** المسلمون على البحث عن الحديث وحفظه وتعلُّمه، وأيضا تنقيته مما قد يدخل فيه وهو ليس منه إما بخطإ راو أو بتعمده وكانت هذه الحقائق هي البذور التي لم تلبث أن أينعت فيما بعد علم النقد الحديثي.

فبعد انتشار الإسلام وموت كثيرٍ من الصحابة ظهرت بعض البدع والكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، فلزم استحداث قاعدة نقدية مضادَّة تقي الحديث شرَّ تغير الناس، فحصل ذلك وهي ما صاغها التابعي محمد بن سيرين (ت ١١٠) بقوله: "إنّ هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم" اهـ

فبدؤوا بالسؤال عن الرجال لمعرفة أحوالهم، وكانت تلك الأيام هي بدايات تشكل الأسانيد، فابن سيرين بينه وبين النبي ﷺ بقة واحدة، وهي طبقة

الصحابة رضي الله عنهم، وأمّا في طبقة ابن سيرين كان الأصل في تلاميذ الصحابة هو الصدق والحفظ، ومع هذا كانوا يتحرّون الأوثق والأقوى حفظاً، قال ابن سيرين لأحد أصحابه: إذا حدثتني فحدثني عن أبي زرعة، فإنه حدثني بحديث ثم سألته بعد ذلك بسنة فما خرم منه حرفاً"

سنن الدارمي ٤٣٣.

ولعل الباعث على إعادة سؤاله عن الحديث لامتحانه وكان هذا يحصل كثيرا, يمتحنون حفظ الرجل قبل أن يأخذوا عنه، وسأذكر لاحقاً إن شاء الله بعض الأمثلة في هذا الباب.

وكانوا يدققون في علاقة الرجل مع الله سبحانه، فينظرون إلى صلاته، قال أبو العالية (ت٩٣ هـ): "كنا نأتي الرجل لنأخذ عنه، فننظر إذا صلى، فإن أحسنها جلسنا إليه، وقلنا هو لغيرها أحسن، وإن أساءها قمنا عنه، وقلنا هو لغيرها أسوأ" اهـ ٤٣٧

وبدأ توثيق الكتّاب للحديث في عهد مبكر جداً، ولكن كانت الكتب إذ ذاك الأصل فيها أنّها للحفظ، ولم تكن للنسخ والنشر، قال أبو هريرة رضي الله عنه: "ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً عن النبي ﷺ ني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب". سنن الدارمي ٥٠٠.

وكان أنس بن مالك (ت٩٣ هـ) يقول "يا بني قيّدوا هذا العلم" سنن الدارمي ٥٠٨.

وقال بشير بن نهيك "كنت أكتب ما أسمع من أبي هريرة رضي الله عنه فلما أردت أن أفارقه أتيت بكتابه فقرأت عليه، وقلت له: هذا ما سمعت منك؟ قال: نعم" سنن الدارمي ٥١١.

وقال سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ): "كنت أسمع من ابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهما الحديث بالليل فأكتبه في واسطة الرحل" اهـ سنن الدارمي ٥١٢.

وعن عبدالله بن حنش قال:رأيتهم يكتبون عند البراء بأطراف القصب على أكفهم" اه سنن الدارمي ٥٢٠.

وكان أحد أسباب الحرص على التوثيق الكتابي هو خشية ضياع الأحاديث بموت حامليها.

قال عبدالله بن دينار (ت ١٢٧هـ): "كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن اكتب إلي بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ بحديث عمرة، فإني خشيت دروس العلم". سنن الدارمي.

وسبب وصيته بحديث عمرة لأنها كانت تلميذة عائشة _رضي الله عنها_وحملت عنها علماً كثيراً.

"ومن الأدوات النقدية التي برزت في تلك الحقبة "تحري السماع" بأن يبحثوا في كل إسناد هل سمع الراوي من شيخه المذكور في الإسناد، فيكون متصلاً، أم أن بينهما واسطة لم تذكر فيكون منقطعاً، وهكذا في شيخ الراوي عن شيخ شيخه حتى يبلُغ بذلك إلى النبي ﷺ، فإن كانت الوثيقة متصلٌ إسنادها بالنبي ﷺ قُبلت وإلّا فلا.

وأدى بهم هذا إلى مزيد عنايةٍ بحفظ وفيات الرواة وربما ولاداتهم والبلدان التي رحلوا إليها، لمعرفة الفجوات الزمانية والمكانية التي قد توجد في الأسانيد، ومن ثم التنكب عمّا روي من طريقها.

قال أبو إسحاق الطالقاني: "سألت ابن المبارك عن الرجل يصلي عن أبويه، فقال: من يرويه، قلت : شهاب بن خراش قال: ثقة، عمن؟ قلت: عن الحجاج بن دينار، قال: ثقة، عمن؟ قلت: عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "بين النبي ﷺ وبين الحجاج مفاوز تنقطع فيها أعناق الإبل".الكافي ٣٩٢.

فرد ابن المبارك حديثاً رواته ثقات للفجوة الزمنية بين النبي صلى الله عليه وسلم وراويه عنه، بل قال ابن المبارك في وصف هذه القاعدة: " مثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد كمثل الذي يرتقي السطح بلا سلم" الكافي ٣٩٣

قال هلال بن العلاء: " سمعت أبي يقول حمل أصحاب الحديث يوماً على ابن عيينه، فصعد فوق غرفة، فقال له أخوه: تريد أن يتفرقوا عنك حدثهم بغير إسناد" الكافي ٣٩٣

ودون العلماء العديد من الكتب التي تُعنى بذكر الانقطاع والسماع بين رواة الحديث، من أجمعها وأوعبها كتاب "جامع التحصيل في أحكام المراسيل" للعلائي جمع فيه ما تفرق في كتب الأئمة والعلماء من قلبه.

ودون العلماء كتباً تجمع ما ذكرناه سابقاً من أسماء الرواة وبلدانهم ووفياتهم وأحكام الأئمة عليهم، وتختلف أساليب هذه الكتب، فمثلاً : أول مدونة عملاقة في هذا الباب هو كتاب " التاريخ الكبير للبخاري" رتب فيه الرواة

ترتيباً أبجدياً يذكر اسم الراوي وأحد أحاديثه التي رواها، ثم في الغالب يذكر رأيه فيه جرحاً وتعديلاً، ويأتي بعده كتاب "الجرح والتعديل لابن أبي حاتم" يذكر الراوي وبعض شيوخه وتلاميذه ثم أحكام الأئمة عليه، وقد بنى ابن أبي حاتم عمله هذا على كتاب البخاري فزاد وهذّب حسب اجتهاده، ومن الأمثلة أيضاً كتاب "الضعفاء للعقيلي" يذكر اسم الراوي وبعض الأحاديث التي استنكرت عليه، وأحكام الأئمة عليه، وأيضاً كتاب " الكمال للمقدسي" وكان عمله مقتصراً على رجال كتب السنة فقط (صحيح البخاري / صحيح مسلم / جامع الترمذي / سنن أبي داود / سنن النسائي / سنن ابن ماجه) ، فيذكر اسم الراوي، ثم شيوخه ثم تلاميذه، ثم أحكام الأئمة عليه، وهذا الكتاب هذبه المزي بكتاب " تهذيب الكمال" ثم هذبه ابن حجر في " تهذيب التهذيب" ثم هذب ابن حجر تهذيبه أيضاً في "تقريب التهذيب" ففيه يذكر اسم الراوي وبلده ووفاته ويحاول تلخيص أحكام الأئمة فيه بحكم واحد يجتهد فيه.

وهناك كتب أيضاً في هذا السياق لها أسلوبها الخاص تسمى بكتب "السؤالات" وطريقتها أن يعمد التلميذ إلى شيخه ويسأله عن الرواة، ويدوِّن أجوبته في كتاب، مثالها " سؤالات أبي داوود لأحمد بن حنبل" و"سؤالات الدارمي ليحيى بن معين" و"سؤالات عثمان ابن أبي شيبة لعلي بن المديني" وغيرها.

فإن قال قائل : قد ذكرت لنا أن منهج النقد الحديثي قد انبثق وبدأ تشكله من فجر الإسلام، فهل تذكر لنا على وجه الاختصار، ما الشروط التي لو تحققت في حديثٍ نبويّ تحكمون بناءًا عليها بصحته؟

هـذا السـؤال جيـد جـداً ويطـول جوابـه ومـن خلالـه نسـتطيع أن نمجهـر ونسـلط الضوء على كثيرٍ من قواعد النقد التي استحدثت خلال مسيرة الإسناد.

فأقول: قال الشافعي رحمه الله: ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أموراً:

١- أن يكـون مـا حـدّث بـه ثقـة في دينـه ، معروفـاً بالصـدق في حديثـه، عـاقلاً لمـا يُحـدّث بـه، عالمـاً بمـا يحيـل معـاني الحـديث مـن اللفـظ، أو أن يكـون ممـن يـؤدي الحـديث بحروفـه كمـا سمـع، لا يحـدث بـه علـى المعـنى، لأنـه إذا حـدَّث بـه علـى المعـنى وهـو غـير عـالمٍ بمـا يحيـل معنـاه لم يـدرِ لعلـه يحيـل الحـلال إلى الحـرام، وإذا أدّى بحروفه لم يبق وجه يخاف فيه إحالة المعنى.

٢- حافظـاً إن حـدَّث بـه مـن حفظـه، حافظـاً لكتابـه إن حـدّث بـه مـن كتابـه (وهـذه النقطـة الدقيقـة فطـن لهـا أئمـة الجـرح والتعـديل، وميـزوا بـين كثـير مـن الـرواة فيهـا، وبيَّنـوا مـن حفظـه حفـظ كتـاب، ومـن حفظـه حفـظ صـدر) قـال: إذا شَـرِكَ أهل الحفظ في حديثٍ وافق حديثهم.

٣- بريئـاً مـن أن يكـون مدلسـاً يحـدِّث عمـن لقـي مـا لم يسـمع منـه. (بمعـنى أن بعـض الـرواة يكتـب عـن الشـيخ بعـض الحـديث ويفوتـه بعضـه، فمـا فاتـه إذا حـدث بـه عـن شـيخه بلفـظ محتمـل السـماع منـه كـان هـذا تدليسـا يُـرد بـه الحـديث) قـال: أو يحـدِّث عـن النـبي ﷺ مـا يحـدِّث الثقـات خلافـه، ويكـون هكـذا مـن فوقـه ممـن حـدث حـتى ينتهـي بالحـديث موصـولاً إلى النـبي ﷺ. اهـ الرسالة

فجمع في كلامه عدة شروط تتلخص في:

الأول: أن الحديث لا يُحتج به حتى يجمع رواته من أولهم إلى آخرهم شروطاً:ــ

أحدها: الثقة في الدين، وهي العدالة.

الثاني: المعرفة بالصدق في الحديث.

الثالث: العقل لما يحدث به.

الرابع: الحفظ.

الخامس: أن يكون في حديث الذي لا ينفرد به يوافق الثقات في حديثهم، فلا يحدث بما لا يوافق الثقات.

السادس: أن لا يكون مدلساً.

وكثير من العلماء يجعل الشروط خمسة وهي أن يرويه:

١ـ عدل

٢- ثقة ضابط لحديثه

٣- إلى منتهى الإسناد

٤- من غير شذوذ

٥- ولا علة

وتتفق هذه الشروط مع شروط الشافعي، فالشذوذ قد عرَّفه الشافعي ــرحمه اللهــ بقوله "ليس الشاذ من الحديث أن يروي الثقة حديثاً لم يروه غيره، إنما الشاذ من الحديث أن يروي الثقات حديثاً فيشذ عنهم واحدٌ يخالفه". فهو مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه حفظاً أو أكثر منه عدداً من الثقات.

وأما العلة فهو الخطأ سواء في الإسناد أو المتن، وقد عرَّفها العلماء بعدهة تعريفات تتمحور حول ما ذكرته لك.

ولقد يعلم هنا أن العلة قد تطلق على الشذوذ أيضاً، فالعلة وصفٌ عام للأخطاء التي منها الشذوذ.

مروة القيسي, [٠٩:٢٥ ٢٠٢٢/٠٩/٠٢ م]

فإن قال قائل : قد فهمنا ما قلت، واتضحت لنا صورة الأمر، غير أنه ثمة سؤالان يهجمان على القلب قد لا يتم نظم لهذه المسائل حتى يتم الإجابة عنهما،

أما الأول: فهو أنك ذكرت في وصف شروط الحديث الصحيح أن يكون رجاله ثقات، وهذا معناه أن هناك من هم غير ثقات، فهل هناك آلية أو قواعد من خلالها عرف العلماء وميزوا الثقة من غير الثقة؟ وأما الثاني: كيف يحكمون على الحديث بأنه معلول أو شاذ؟

الإجابة عن السؤال الأول تحمل في طياتها الإجابة عن السؤال الثاني للتلازم بين المسألتين.

فأقول: بلى هناك قواعد وضوابط من خلالها أصدر الأئمة أحكامهم على الرجال ومنها صار عندنا علماً مستقلاً بنفسه هو علم الجرح والتعديل.

وسأحكي لك إن شاء الله في عدة نقاط شيئاً من طرائقهم في الحكم على الرجال متخصراً قدر المستطاع إذ المقام لا يحتمل البسط، فأقول:ـــ

أولاً: من أساليب معرفة ضبط الرواة النظر في كتب تلاميذهم، فإن وجد أن هناك اختلافٌ قوي بيِّن بين تلاميذه، فيعلم أنه قد حدَّث بالأحاديث التي عنده في مكان وزمان بخلاف ما حدَّث فيها في زمان ومكان آخر، وهذه علامة ضعف ضبط.

قال عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله: " إنما يستدل على حفظ الحديث إذا لم يختلف عليه الحفاظ" اهـ الكفاية للخطيب البغدادي /٤٣٥

وأما اختلاف الضعفاء عنه واختلاف الأثبات فيه فهذا غير مؤثر فيه، وقال عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله: " أربعة في الكوفة لا يختلف في حديثهم، فمن اختلف عليهم فهو مخطئ وليس هم: عمرو بن مرة و منصور بن المعتمر ، وسلمة بن كهيل، وأبو حصين"
اهـ الجرح والتعديل ٦/٢٧٥
فهؤلاء الأربعة أثبات لا يضرهم بأن خالفهم مخالف، فإن الخطأ غالباً يكون منه.

قال الذهبي قال ابن عباس في كتاب الضعفاء: سمعت محمد بن إبراهيم بن أبي شيخ الملطي يقول: جاء يحيى بن معين إلى عفان ليسمع منه كتب حماد بن سلمة، فقال: أما سمعتها من أحد؟ قال: نعم، حدثني سبعة عشر نفسا عن حماد، قال: والله لا حدثتك. فقال: إنما هو درهم، وأنحدر إلى البصرة، فأسمع من التبوذكي. قال: شأنك. فانحدر إلى البصرة، وجاء إلى التبوذكي، فقال له: أما سمعتها من أحد؟ قال: سمعتها على الوجه من سبعة عشر، وأنت الثامن عشر. قال: وما تصنع بهذا؟ قال: إن حماد بن سلمة كان يخطئ، فأردت أن أميز خطأه من خطأ غيره، فإذا رأيت أصحابه اجتمعوا على شئ، علمت أن الخطأ منه." اهـ سير أعلام النبلاء

قال ابن محرز: سمعت يحيى بن معين يقول: قال لي اسماعيل بن عليا يوماً كيف حديثي؟ قال: قلت: أنت مستقيم الحديث قال: فقال لي: وكيف علمتم ذاك

قلت له: عارضنا بها أحاديث الناس فرأيناها مستقيمة قال: فقال: الحمد لله."
سؤالات ابن محرز (٢/٩٣)

وقد قال الذهبي في رسالته في مصطلح الحديث
"الموقظة" ثم أعلم أن أكثر المتكلم فيهم، ما ضعّفهم الحفاظ إلا لمخالفتهم الأثبات.اهـ

ثانياً: هناك أئمةٌ أثبات عرفوا بانتقاء الشيوخ فلا يروون إلا عن الأثبات، ويتنكبون الرواية عن الضعفاء، فإن اشتُهر راوٍ بين الناس بضعفه اجتنبوه، وإن كتبوا عن ضعيفٍ جهلوا حاله ثم تبين لهم بعد تمحيص مروياته والنظر فيها لم يرووا عنه.

وقال ابن رجب رحمه الله :"فرق بين كتابة حديث الضعيف روايته؛: فإن الأئمة كتبوا أحاديث الضعفاء لمعرفتها ولم يرووها، كما قال يحيى : سجرنا بها التنور ، وكذلك أحمد (خرق حديث خلق ممن كتب حديثهم ولم يحدث به، وأسقط من المسند حديث خلق من المتروكين"اهـ شرح علل الترمذي ١/٩٠
قال ابن رجب:"والمنصوص عن أحمد يدل على أنه من عرف منه أنه لا يروي إلا عن ثقة، فروايته عن إنسان تعديل له." اهـ
شرح علل الترمذي ١/٨
ومن هؤلاء الأئمة الذين تعد روايتهم عن شيخ توثيق له: الإمام مالك بن أنس رحمه الله. قال ابن هانئ في مسائله ٢٣٦٧: "وسمعته يقول(أي الإمام

أحمد)ما روى مالك عن أحد إلَّا وهو ثقة، كل من روى عنه مالك، فهو ثقة."اهـ

ومنهم أيضاً الإمام يحي القطان رحمه الله تعالى.

قال العجلي: " بصري ثقة نقي الحديث، كان لا يحدث إلا عن ثقة."اهـ

وقال أبو بكر بن منجويه : "وهو الذى مهد لأهل العراق رسم الحديث، وأمعن فى البحث عن الثقات، و ترك الضعفاء" .اهـ

تهذيب الكمال ٣١/ ٣٤٠

قال سفيان: يحيى بن سعيد يريد شقيقاً عن عبد الله". قال ابن أبي حاتم - يعني أنه لا يرضى إلا برواية الحفاظ المتقنين". الجرح والتعديل /٢٣٣

شقيق* تابعي إمام، وعبدالله هو ابن مسعود، فمعنى هذا الأثر أن يحيى لا يرضى إلا بمثل هذا الإسناد.

ومنهم أيضاً الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله.

وقال عمرو بن علي: سألت عبد الرحمن بن مهدي عن حديث عبد الكريم المعلم، فقال: هو عن عبد الكريم. (أقول كأنه أبى تحديثه بالحديث الذي سأله عنه) قال فلما قام سألته فيما بيني وبينه، قال:أين التقوى؟. قال ابن ابي حاتم معلقاً: يعني أن التقوى تحجزه عن الرواية عمن ليس بثقة عنده في السر والعلانية، وكان عبد الكريم المعلم عنده غير قوي، فكره أن يُحدّث عنه".اهـ

الجرح والتعديل ١/٢٥٢ مروة القيسي, [٢٠٢٢/٠٩/٠٢ ٠٩:٢٥ م]

ثالثاً: وربما يعرف الرجل بامتحان وغربلة تلاميذه لحديثه، فإن وجدوه اختلف عليهم ضعفوه أو وجدوه يكذب حكموا عليه بالكذب، قال سليمان بن حرب سمعت حماد بن زيد يقول: كان علي بن زيد يحدثنا اليوم بالحديث ثم يحدثنا غداً، فكأنه ليس بذاك. اهـ

قال وكيع بن الجراح: "أتينا المعلى بن هلال وإن كتبه لمن أصح الكتب، ثم ظهرت أشياء فما نقدر أن نحدث عنه بشيء". اهـ

الجرح والتعديل ١/٢٣٥

والمعلى هذا كذاب وصفه بذلك أحمد ويحيى، ولكن الإمام وكيع نظر في كتبه ووجدها صحيحة، ثم ربما سمع منه ووجده يكذب.

وعن عمرو بن علي يقول: "سمعت يحيى القطان يقول: أحاديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة كلها صحاح وجعل يحدثني بها". اهـ

الجرح والتعديل ١/٢٤١

وابن جريج شيخ يحيى، فلما كتب عنه أحاديثه عن ابن أبي مليكة وعارض بها أحاديث الناس وجدها صحيحة.

وعن سفيان بن عبد الملك، قال عبدالله _يعني ابن المبارك_: "إبراهيم بن طهمان والسكري _ يعني أبا حمزة_ صحيحا الكتب" الجرح والتعديل ١/٢٧٠

هما شيخاه سمع عنهما تحديثهم ما كتبهم فوجد أحاديثهم من كتبهم صحيحة، وقوله "صحيحا الكتب" كأنها إشارة إلى أنهما إذا حدثا من حفظهما ربما يخطئان.

• قال يحيى القطان: قال لي شعبة: كنت أتلقى الركبان أيام الجرام أسأل عن أبي هارون العيدي، فلما قدم أتيته فرأيت عنده كتابًا فيه أشياء منكرة في علي، فقلت: ما هذا الكتاب؟ قال: هذا الكتاب حق.

• قال وكيع: ذكر شعبة أبا هارون العبدي، فلقي منه جزا. قال: بن أبي حاتم معلقًا: يعني أنه ذكره بغير الجميل .الجرح والتعديل (١٤٩/١)

فلما تفحص كتبه وجده يروي المنكرات عن علي رضي الله عنه فأسقطه.

• ومن الأمثلة الشهيرة في هذا الباب ما رواه الخطيب بإسناده في تاريخه (٣٠٧/١٤)، عن أحمد بن منصور الرمادي، قال: خرجت مع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين الى عبدالرزاق خادمًا لهما، فلما عدنا الى الكوفة، قال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل: أريد أن أختبر أبا نعيم، فقال له أحمد بن حنبل: لا تريد، الرجل ثقة، فقال يحيى بن معين: لا بد لي! ، فأخذ ورقة، فكتب فيها ثلاثين حديثًا من حديث أبي نعيم، وجعل على رأس كل عشرة منها حديثًا ليس من حديثه(أي ليس من حديث أبي نعيم)، ثم جاؤوا الى أبي نعيم فدقوا عليه الباب، فخر، فجلس على دكان طين حذاء بابه، وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه، وأخذ يحيى بن معين فأجلسه عن يساره، ثم جلست أسفل الدكان، فأخرج يحيى بن معين الطبق، فقرأ عليه عشرة أحاديث، وأبو نعيم ساكت، ثم قرأ الحادي عشر، فقال له أبو نعيم: ليس من حديثي اضرب عليه (أي اشطبه)، ثم قرأ العشر الثاني، وأبو نعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم: ليس من حديثي فاضرب عليه، ثم قرأ العشر الثالث، وقرأ الحديث الثالث، فتغير أبو نعيم وتقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى بن معين فقال: أما هذا -وذراع أحمد في يده- فأورع من أن يفعل مثل هذا، وأما هذا -يريدني-، فأقل من أن يفعل مثل هذا، ولكن هذا من فعلك يا فاعل، ثم أخرج رجله فرفس يحيى بن معين، فرمى به من الدكان، وقام فدخل داره، فقال

أحمد ليحيي: ألم أمنعك من الرجل ؟ وأقل لك أنه ثقة، قال: **والله لرفسته إلي أحب إلي من سفري.اهـ**

وهذه كلمة تجلي باعث الديانة الذي في قلب يحي الذي يدعوه للسفر وتحمل المشاق لأجل امتحان الشيوخ، ومعرفة صحة أحاديثهم من سقيمها، ومعرفة ما تغير منهم ممن ثبت حفظه، وامتحانه لأبي نعيم كان امتحانا لثبات حفظه لا أصل حفظه، فإن حديث أبي نعيم كان عنده أخذه منه، ومنه سجل له هذا الإختبار، فالأصل في طريقة الرواة قديمًا أيضا عدم الرحلة إلا بعد استيفاء حديث بلدهم والبلاد المجاورة، ويحيى كان بغدادي فمثله لا يرحل الى عبدالرزاق في اليمن إلا بعد استيفاء حديث شيوخ العراق الدين منهم أبو نعيم الكوفي رحمه الله.

وهذه القصة لطيفة تنبئ عن دقة وحرص شديدين في هذا المقام. روى الخطيب في الكفاية طبعة ابن الجوزي بإسناده الى أبي داود الطيالسي، قال: سمعت شعبة يقول: سمعت من طلحة بن مصرف حديثا واحدا، وكنت كلما مررت به سألته عنه، فقيل له: لمَ يا أبا بسطام؟ قال: **أردت أن أنظر الى حفظه، فإن غير فيه شيئًا تركته.اهـ**

فهذه دقة وصرامة لا ينقضي منها العجب! وأبو بسطام هو شيخ يحي القطان وابن مهدي اللذين ذكرناهما سابقا، وهما شيخا أحمد وابن معين، **فهذه مدرسة نقدية مسلسلة بالأئمة الذين يؤرز إليهم في طلب العلم، وحل المشكلات، والقضاء في الملمات.**

وكمثال على راوٍ اصطادوا فيه التغير، قال الإمام أحمد رحمه الله: سماع وكيع من المسعودي بالكوفة قديمًا، وأبو نعيم أيضا، وإنما اختلط المسعودي ببغداد، ومن سمع منه بالبصرة والكوفة فسماعه جيد. اهـ العلل ومعرفة الرجال برواية عبدالله (٥٧٥)

وكيع وأبو نعيم شيخا أحمد، تفحص روايتهم عن المسعودي ووجدها مستقيمة، وتفحص رواية شيخون من بغداد عن المسعودي ووجدها ليست بذاك، فعلم أن المسعودي تغير حفظه.

قال مسلم في مقدمة صحيحه: سمعت الحسن بن علي الحلواني، يقول: رأيت في كتاب عفان: حديث هشام أبي المقدام، حديث عمر بن عبدالعزيز، قال هشام: حدثني رجل يقال له يحيى بن فلان، عن محمد بن كعب قال: قلت لعفان: إنهم يقولون: هشام سمعه من محمد بن كعب، فقال: **إنما ابتلي من قِبَل هذا الحديث، كان يقول: حدثني يحيى عن محمد، ثم ادعى بعدُ أنه سمعه من محمد. اهـ**

فكان هشام يرويه عن يحيى عن محمد بن كعب، ثم إنه لما حدث فيه في مقامات أخرى تغير وأسقط الواسطة بينه وبين محمد، وكأنهم علموا بتغيره من هذا الحديث.

وأما الكذابون الذين يضعون الأحاديث على النبي ﷺ فطرائق معرفتهم كانت أسهل وأبشر من غيرهم، بحفظ الله أولاً، حيث قال: (إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ)، وحديث النبي ﷺ هو من جملة الذكر المحفوظ، إلا أن الله سبحانه وتعالى تيسيرا وامتحانا قد جعل منه سكة من الاجتهاد، وميدانا للجهاد في سبيل تنقيته مما قد دخل عليه، فضلًا على عباد يحوزون به عظيم الأجر، وامتحانا لآخرين تضعف عقولهم عن تصور دقائقه فيمترون ويهلكون.

• **فمن ذلك: أنه يكثر من الإغراب في أحاديثه عن النبي ﷺ**، فيروي ما لا يعرفه الناس، ويعرف من القرائن تعمده لذلك.

قال مسلم في مقدمة صحيحه: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا حماد بن زيد، قال: كان رجل قد لزم أيوب وسمع منه، ففقده أيوب، فقالوا: يا أبا بكر، إنه قد لزم عمرو بن عبيد، قال حماد: مضينا يوما مع أيوب، وقد بكرنا الى السوق، فاستقبله الرجل، فسلم عليه أيوب وسأله، ثم قال له أيوب: أنك لزمت ذاك الرجل، قال حماد: سماه أيوب، يعني عمرو، قال: نعم يا أبا بكر، إنه يجيئنا بأشياءغرائب، قال أيوب: إنما نفر -أو ينفر- من تلك الغرائب.

• **منه إنه يروي خلاف المشهور المحفوظ**، ويعرف عنه تعمد ذلك من القرائن.

روى مسلم في مقدمة صحيحه بإسناده عن حماد بن زيد، قال: قيل لأيوب: عمرو بن عبيد روى عن الحسن، قال: لا يجلد السكران من النبيذ، فقال: كذب، أنا سمعت الحسن يقول: يجلد السكران من النبيذ.

• **أو يعترف بالكذب**: كما روى مسلم في مقدمة صحيحه: حدثنا محمد بن غيلان، قال: قلت لأبي داود الطيالسي: قد أكثرت عن عباد بن منصور، فمالك لا تسمع منه حديث العطارة الذي روى لنا النضر بن شميل؟، قال لي: اسكت، فأنا لقيت زياد بن ميمون، وعبدالرحمن بن مهدي، فسألناه، فقلنا له: هذه الأحاديث التي ترويها عن أنس؟ فقال: أرأيتما رجلا يذنب فيتوب، أليس يتوب الله عليه؟ قال: قلنا نعم، قال: ما سمعت من أنس من ذا قليلا ولا كثيراً. اهـ

• **ومنها أن يخونه التاريخ:** قال الخطيب: ومما يستدل به على كذب المحدث في روايته عمن لم يدركه معرفة تاريخ موت المروي عنه ومولده، قال سفيان الثوري: لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ. الكفاية للخطيب البغدادي (١١٩)

قال حفص بن غياث: إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين.
الكفاية للخطيب البغدادي(١١٩)

قال مسلم في مقدمة صحيحه: حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، قال: سمعت أبا نعيم وذكر المعلى بن عرفان، فقال(راويًا عنه)، قال: **حدثنا أبو وائل، قال: خرج علينا ابن مسعود بصفين، فقال أبو نعيم(ساخرا): أتراه بعث بعد الموت؟. اهـ**
فمعركة صفين كانت بعد وفاة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بخمسة أعوام.

ومنها أن يكذبه من أسند إليه الحديث: قال شعبة: روى الحسن بن عمارة عن الحكم عن يحيى بن الجزار، عن علي سبعة أحاديث، فلقيت الحكم، فسألته عنها، فقال: ما حدثت بشيء منها. الجرح والتعديل (١/١٣٨)
فإن قال قائل: هؤلاء الأئمة الذين ذكرت من شأنهم ما ذكرت، وزعمت أنهم قضاة هذا الشأن، كيف نالوا ما نالوا؟

أقول لو تدبرت ما سبق لبان لك ما احترت فيه من شدة التدقيق والتحري، وشفوق النظر، فعامة القواعد التي استحدثت عندهم في هذه السياقات من

غير كبير مواطأة بينهم، لو استخرجتها وصغتها لتحصلت على رسالة لطيفة تصلح في تدريس النقد التاريخي بأرقى الجامعات!

زد على ذلك أن المبرزين في هذا الشأن كانت علومهم محفوظة في صدورهم (أزيد كلام)

- قال عبدالله بن أحمد: سمعت أبا زرعة الرازي يقول: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب. تاريخ بغداد (٩٠/٦)

- قال ابن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: نظرت في نحو ثمانين ألف حديث من حديث ابن وهب بمصر وفي غير مصر، ما أعلم أني رأيت حديثا لا أصل له.

الجرح والتعديل (٣٣٥/١)

بمعنى أنه قرأ كتب عبدالله بن وهب المصري فوجد أن عامة أحاديثه تروى بأسانيد صحيحة ومحتملة هو يحفظها.

- قال شعبة: ما حدثني سفيان(الثوري) عن إنسان بحديث، فسألته عنه إلا كان كما حدثني. الجرح والتعديل (٦٧/١)

فكان شعبة من شدة تحريه ربما سمع الحديث من سفيان ثم يسأل شيخ سفيان عنه، فيجده كما حدث به سفيان.

• وقال الحسين بن عياش: كنا نأتي سفيان إذا سمعنا من الأعمش، فنعرضها عليه بالعشي، فيقول: هذا من حديثه، وهذا ليس من حديثه. الجرح والتعديل (١/٧٠)

وهذا من إتقان حفظ الثوري -رحمه الله- لحديث الأعمش كان مرجعًا للطلاب فيه.

قال الراوي: فنأتي الأعمش فنخبره بذلك، فيقول: صدق سفيان، ليس هذا من حديثنا. الجرح والتعديل (١/٧١)

• وقال قتادة: لسعيد بن أبي عروبة: يا أبي النظر خذ المصحف، فعرض عليه سورة البقرة، فلم يخطئ فيها حرفا واحدًا، قال: يا أبا النظر أحكمت؟ قال: نعم، قال: لأنا لصحيفة جابر بن عبدالله أحفظ مني لسورة البقرة. تهذيب الكمال (٢٣/٥٠٨)

• ومن الحكايات أيضا التي تدل على أن هؤلاء الأئمة كان علمهم في صدورهم، قصة أحمد وابن معين وأبي نعيم التي سقناها آنفا، فأبو نعيم كان مستحضر الحديث لحظة اختبار ابن معين له.

• قال ابن أبي حاتم رحمه الله: سمعت أبي رحمه الله يقول: قلت على باب أبي الوليد الطيالسي: من أغرب علي حديثا غريبا مسندا صحيحا لم أسمع به فله علي درهم يتصدق به، وقد حضر على باب أبي الوليد خلق من الخلق أبو زرعة فمن دونه، وإنما كان مرادي أن أستخرج منهم ما ليس

عنـدي، فمـا تهيأ لأحـد مـنهم أن يغـرب علـي حـديثا. الجرح والتعديل (١/٣٥٥)

وأبو حاتم كان من أئمة العلل وأئمة الجرح والتعديل الذين يصدرون الأحكام على الرجال، ولسعة حفظه وجمعه للحديث لم يستطع أحد من أصحابه أن يذكر له حديثا ليس عنده، ولو كان ضعيفا أو حتى منكرا !

وهذه الأسماء التي ذكرتها لم تتفرد بهذا المقام العالي، فغيرهم كثير ممن جمع بين سعة المحفوظ ودقة النظر، مثل: ابن مهدي، والقطان، وابن المديني، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والدارقطني، غير أننا نكتفي بالأمثلة، إذ المقام ليس مقام بسط.

فما ذكرته لك في هذه الورقات هو بعض الفوائد الدقيقة التي أنتجتها يد العناية الإلهية في سبيل حفظ السنة النبوية، وذكرت لك بارك الله فيك، بعض أسماء الأئمة الذين تشرفوا أن جرت على أيديهم وألسنتهم تلك القواعد، والأمر العجيب الذي يحسن الإشارة إليه أن هذه القواعد كانت محل اتفاق في غالبها بين الأئمة المتقدمين رغم اختلاف بلدانهم كما هو ملاحظ وتباعد أقطارهم، وهذا إن دل فإنما يدل على أنها خرجت من مشكاة واحدة، ونحن نعلم أنهم لم تجمعهم مدرسة واحدة من قبل وتلقنهم تلك القواعد، إنما هو التوفيق والتسديد من الله سبحانه وتعالى، بينما نجد في الثقافات الأخرى علماء التاريخ رغم قلتهم إلا أنهم طرائق قددا، ومدارس مختلفة، وكلما أتت أمة لعنت أختها والتي قبلها، وحتى وقت قريب ربما حصل بعض الاتفاق على منهجيات معينة في البحث التاريخي

عنـد علمـاء الغـرب، ولكنهـا حقيقـة لا ترقـى ولـن ترقـى إلى منهجيـة أهـل الحديث في دقتها، وصحة نتائجها.

قـال الـدكتور النصـراني أسـد رسـتم: «والراقـع أن المثودولوجيـة الغربيـة الـتي تظهـر اليـوم لأول مـرة بثـوب عـربي، ليسـت غريبـة عـن علـم مصـطلح الحـديث، بـل تمـت إليـه بصـلة قويـة، فالتـاريخ درايـة أولًا ثم روايـة، كمـا أن الحـديث درايـة وروايـة، وبعـض القواعـد الـتي وضـعها الأئمـة منـذ قـرون عديـدة، للتوصـل الى الحقيقـة في الحـديث، تتفـق في جوهرهـا وبعـض الأنظمـة الـتي أقرهـا علمـاء أروبا فيمـا بعـد في بنـاء علـم الميثولوجيـة، ولـو أن مـؤرخي أروبا في العصـورالحديثة، اطلعـوا علـى مصـنفات الأئمـة المحـدثين لمـا تأخـروا في تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الماضي» .

مصطلح التاريخ (١٢)

تمت